



In Search of Religious Centrality: From Babylon to Jerusalem, from Mecca to Medina*



Abolfazl Khoshmanesh 

Associate Professor, Department of Qur'anic Sciences and Hadith, Faculty of Theology and Islamic Studies, University of Tehran, Tehran, Iran.

khoshmanesh@ut.ac.ir

Abstract

Nearly all ancient religions possessed certain centers that emerged for various reasons, such as being the birthplace of a prophet, hosting a principal temple or place of worship, or serving as the site of significant religious, political, or epic events. Over time, many of these centers experienced decline or lost their genuine spiritual functions. Drawing on Qur'anic verses and employing a content analysis approach, this article examines four major religious locations in history—Babylon, Jerusalem, Mecca, and Medina—by offering a brief overview of their historical trajectories and destinies, with a focus on their religious centrality. It appears that humanity's turn toward each of these cities represents successive stages in its quest to discover a religious and spiritual center and a point of connection between heaven and earth. The findings of this study indicate that the spiritual

* Khoshmanesh, A. (2025). In Search of Religious Centrality: From Babylon to Jerusalem, from Mecca to Medina. *Al-Fikr al-Siasi al-Islami*, 5(1), pp. 112-139.

<https://doi.org/10.22081/ipt.2026.74399.1054>

▣ **Article Type:** Research; **Publisher:** Islamic Sciences and Culture Academy, Qom, Iran

▣ **Received:** 2024/05/19 • **Revised:** 2024/07/27 • **Accepted:** 2024/08/29 • **Available Online:** 2025/03/30

© 2025

authors retain the copyright and full publishing rights



<http://ipt.isca.ac.ir>

Publisher: Islamic Sciences and Culture Academy

expectations associated with Babylon and Jerusalem were not adequately fulfilled. Mecca, too, proved to be an unsuitable host for the Final Prophet and his religious law; consequently, after his expulsion from Mecca, the Prophet laid the foundations of a religious and humane civilization in Medina—one that was unparalleled at the time and whose many dimensions have yet to be fully explored.

Keywords

Religious centrality; Babylon and Jerusalem; Mecca and Medina.

۱۱۳

الدراسات الإسلامية

في البحث عن المركزية الدينية من بابل إلى البيت المقدس، ومن مكة المكرمة إلى المدينة المنورة

في البحث عن المركزية الدينية، من بابل إلى البيت المقدس،
ومن مكة المكرمة إلى المدينة المنورة*

أبو الفضل خوش منش  ID

أستاذ مساعد، قسم علوم القرآن والحديث، كلية العلوم الإسلامية والمعارف الدينية، جامعة طهران.
khoshmanesh@ut.ac.ir



١١٤

الفكر السياسي الإسلامي

الملخص

لقد امتلكت معظم الديانات القديمة مراكز خاصة بها، نشأت لأسباب متعددة، كموطن النبي، أو وجود المعبد ومكان العبادة الرئيس، أو وقوع بعض الأحداث الدينية والسياسية والملاحمة المهمة وما شابه ذلك. غير أن كثيراً من هذه المراكز قد تعرضت عبر الزمن للانقراض والتراجع، أو فقد وظائفه الروحية الصحيحة. تسعى هذه المقالة - بالاستناد إلى آيات القرآن الكريم واتباع منهج تحليل المحتوى - إلى تناول أربعة أماكن دينية تاريخية مهمة، وهي: بابل، البيت المقدس (القدس)، ومكة، والمدينة، وذلك من خلال استعراض موجز لمسارها التاريخي ومصيرها، وإبراز مظاهر مركزيتها وأبعادها الدينية والحضارية. يبدو أن توجه البشر إلى كل واحدة من هذه

المجلد ٥، العدد ١، ٢٠٢٥

* خوش منش ، أبو الفضل. (٢٠٢٥). في البحث عن المركزية الدينية، من بابل إلى البيت المقدس، ومن مكة المكرمة إلى المدينة المنورة. مجلة الفكر السياسي الإسلامي النصف سنوية العلمية، ٥(١)، صص ١١٢-١٣٩.

<https://doi.org/10.22081/ipt.2026.74399.1054>

نوع المقالة: بحثية؛ الناشر: المعهد العالي للعلوم والثقافة الإسلامية.

تاريخ الإستلام: ٢٠٢٤/٠٥/١٩ • تاريخ المراجعة: ٢٠٢٤/٠٧/٢٧ • تاريخ القبول: ٢٠٢٤/٠٨/٢٩ • تاريخ النشر: ٢٠٢٥/٠٣/٢٠

© 2025

authors retain the copyright and full publishing rights



<http://ipt.isca.ac.ir>

Publisher: Islamic Sciences and Culture Academy

المدن يمثّل مراحل من مساعيه للعثور على مركزية دينية وروحية ونقطة ارتكاز تربط بين الأرض والسماء. وتُظهر نتائج هذا البحث أنّ التوقعات الروحية المرتبطة ببابل وأورشليم لم تتحقّق على النحو المأمول، كما أنّ مكّة لم تكن، في تلك المرحلة، الحاضنة المثلى للرسول الخاتم ولشريعته، وبالتالي، فإنّ النبي ﷺ بعد إخراجه من مكّة، أرسى في المدينة المنورة دعائم حضارة دينية وإنسانية فريدة لم يكن لها مثيل آنذاك، ولا تزال كثير من أبعادها بحاجة إلى مزيد من الدراسة والتحليل المعمق.

الكلمات المفتاحية

المركزية الدينية، بابل والبيت المقدس، مكّة والمدينة.

١١٥

المركزية الإسلامية

في البحث عن المركزية الدينية من بابل إلى البيت المقدس. ومن مكّة المكرمة إلى المدينة المنورة

كان الدين حاجةً أساسيةً لدى البشر منذ أقدم العصور، وقد نشأت عبر الزمن، لدى معظم الديانات الكبرى في العالم، مراكزُ ذاتُ مكانةٍ خاصةٍ بعناوين واعتباراتٍ متنوّعة، كانت تُعدّ مواضع لتجليّ الإرادة الإلهية، وأقربَ الأمكنة الأرضية إلى «الله» وموطناً للاتّصال بين السماء والأرض، ورمزاً يجسّد الرابطة بين الخالق والمخلوق وقد اتّسمت هذه المراكز بدرجّةٍ من القداسة والروحانية، وربما كانت تتمتع بهيمنة روحية وسياسية وثقافية وحضارية على الأقاليم والمناطق المحيطة بها. نحن نعلم أنّ منظومة «الدين» على مرّ التاريخ، لم تسلم من أطماع النفعيين وأرباب المكاسب الذين التفّوا حولها، فاجتَنوا ثمارها ومغانمها لأنفسهم، وخلفوا وراءهم لهذه المنظومة والمراكز الدينية إرثاً من الآفات والأضرار. ولهذا السبب ظلّت بعض هذه المركزيّات الدينية حبيسة الادّعاءات والتوقّعات دون أن تبلغ حقيقتها المنشودة، في حين ارتبطت أخرى بأشكال من الحضارة والسياسة، وكذلك بالفساد والانحطاط والتدهور. فقد نالت كلّ من بابل، وأورشليم (البيت المقدّس)، وأنطاكية، وروما، ومكّة، والمدينة نوعاً ما لقب أو دعوة أو دعوى المركزيّة الدينية، وقد وردت إشارات إليها من زوايا متعدّدة في القرآن الكريم. من الواضح أنّ الحديث عن بابل في هذا البحث يعود إلى أهمّيّتها في بلاد الرافدين القديمة، وولادة إبراهيم وأنبيا آخرين في نطاق نفوذها، وظهور التوحيد والشرك من هذه المدينة، فضلاً عن ورود ذكرها في «العهدين» وفي سورة البقرة. أمّا أورشليم، فتعود أهمّيّتها إلى ورود ذكرها في «العهدين» والقرآن الكريم والنصوص اللاهوتية اليهودية والمسيحية، فضلاً عن كتاب «مدينة الله» لأوغسطين، واستمرار أحداثها ووقائعها إلى الوقت الحاضر. وأمّا سبب ذكر اسم مكّة والمدينة وأهمّيّتهما في الديانة الإسلامية منذ نشأتها إلى يومنا هذا، فهو أمرٌ جليّ لا يحتاج إلى بيان. تتمثّل إشكالية هذا البحث في دراسة الكيفية التي

سلكتها المدن الأربع المذكورة في مسارها التاريخي والديني من أجل بلوغ مركزية روحية ودينية في عصورها المختلفة. وللإجابة عن هذه الإشكالية، يتناول البحث دراسة وتحليلاً موجزاً لمسارها التاريخي ومصيرها في المصادر التاريخية واللاهوتية، وفي العهدين، والقرآن الكريم. كما يعتمد منهج تحليل المحتوى للنصوص ذات الصلة، ويولي الطاقات الدينية والحضارية الكامنة في مشروع «مدينة النبي» عناية خاصة ويؤكد على أبعادها المتميزة.

خلفية البحث

لا توجد كتابات كثيرة في موضوع المركزية الدينية والمدن التي تدعي هذه المركزية، وأن هذا المجال لم يحظَ باهتمام واسع من الباحثين. ومن بين الدراسات القليلة في هذا السياق مقالة بعنوان «موضوع بازگشت وسکینه انسان در حیات روحی او؛ جستاری در کتاب مقدس وقرآن با تأکید بر سه مرکزیت دینی»^١، تناولت قضية تيه الإنسان وحيرته بعد الهبوط، ثم ذكرت الدور المُسکن والمُطمئن للمراكز الدينية (أورشليم، ومكة، والمدينة) في الحياة الروحية للإنسان (خوش منش، ١٤٠٠ش). كما تناول مقالة أخرى بعنوان: «أم القرى، پایگاه جهانی امت وسط»^٢ - بعد الإشارة إلى وجود بعض المركزية الدينية - الدور البارز لأم المدن «أم القرى» التي بُني فيها «بيت الله» منذ البداية على يد إبراهيم عليه السلام، الذي كان مُنحازاً إلى الحق ولم يكن من أهل الإفراط والتفريط (خوش منش، ١٣٩٣ش، صص ٥٣ - ٧٢). كما أنّ «من مدينة الله إلى أم القرى» عنوان بحث آخر يبيّن فيه موضوع «المدينة الفاضلة» أو ما يسمّى بـ«مدينة الله»، ليُظهر أنّ نشوء تلك

١. «موضوع العودة والسكينة في الحياة الروحية للإنسان؛ دراسة في الكتاب المقدس والقرآن مع التركيز على ثلاث مركزيات دينية».

٢. «أم القرى، القاعدة العالمية للأمم الوسط».

المدينة كان يهدف إلى إقامة الصلة بين الله والإنسان، تحقيق اتصال البشر بالله والقرب منه. (خوش منش، ١٣٩٢ش). تتمثل السمة المميزة لهذه المقالة في تركيزها على مفهوم المركزية الدينية وكيفية نشوئها ومسارها التاريخي في المدن الأربع المذكورة في القرآن الكريم، للوصول من خلال ذلك إلى الطاقات الدينية والحضارية لـ «مدينة النبي» في عصر الرسول الأكرم ﷺ، ودراسة إمكانية تعميم هذه الطاقات في الوقت الحاضر.

١. مراجعة الثنائية: بابل - أورشليم، وبابل - روما

١-١. بابل

مدينة قديمة ذات تاريخ ومصيرٍ يكتنفهما الغموض، يمكن تتبع آثارها في إشارات وروايات ضاربة في القدم؛ تمتد من عصور ما قبل التاريخ إلى التاريخ البشري العام؛ وكذلك في النصوص المقدسة أو الأسطورية، سواء بلغة الحقيقة أو اللغة الرمزية والدلالية. هذا الاسم في لغة الأكاديين مأخوذ من «باب» بمعنى البوابة و«إل» بمعنى «الإله» أي ما يقابل «بوابة الله». وتذكر المصادر الأوروبية أيضاً اسم هذه المدينة «Babylon» المشتق من «Ilani - Bab» أو «Ili - Bab» بمعنى «باب الإله» أو «بوابة الله» و«ملتقى الأرض والسماء» (Brepols, 1996, p. 102)،^١ وقد عدت مركزاً دينياً مهماً في العصور القديمة. تحولت بابل بفضل موقعها المتميز من الناحية الإقليمية، إلى مركزية سياسية وحضارية كبيرة هامة، ومن ثم إلى مركزية دينية، وتفوقت على باقي المناطق المحيطة بها. فقد جرت دعوة نوح عليه السلام، أول دعوة توحيدية شاملة في بلاد الرافدين، وكانت بابل في هذه المنطقة مدينة واسعة ذات معابد جمّة وعظيمة، تعدّ أكبر مدينة لاهوتية في منطقة ما بين

1. la Bible. traduction et annotations d'Émile Osty, p. 115; Robert, Le Robert, p.154.

النهرين، واحتلت مكانةً شبيهةً بمكانة المركزية الدينية لهليوبوليس في مصر، كما كانت تتمتع بسوابق في القانون والحقوق على مرّ التاريخ (Aegerter, 1947, p. 28).

١-١-١. «بابل» في القرآن

وفقاً لأقوال المفسرين والمؤرخين، ورد اسم بابل مرّةً واحدة في الآية ١٠٢ من سورة البقرة مع إشارةً ضمنيةً إلى عظمتها ومكانتها (طالقاني، ١٣٦٠ ش، ج ٥، ص ٢٤؛ روثن، ١٩٨٠ م، ص ٩)، ومرّةً أخرى دون ذكر الاسم في الآية ٢٥٨ من سورة البقرة، حيث جاء الحديث عن حضور إله متعال ومتسلطٍ يدعي الألوهية ويعتبر نفسه مالك الموت والحياة للآخرين (الطبري، ١٩٦٦ م، ج ٣، ص ١٦). كما تشير الإشارات إلى بابل في سور الصفات، والأنبياء، والأنعام، إلى أن هذه المدينة كانت مركزاً لصناعة الأصنام ومعبدًا عظيمًا لها، بالإضافة إلى اهتمام بعض أهلها بالنجوم والمعرفة الفلكية، مما منحها مكانة متميزة في العلم والفكر. وقد وردت هذه الإشارات ضمن عدّة قصص في القرآن. (الصفات، ٨٣ - ٨٩؛ الأنعام، ٧٤ - ٧٩؛ كينج، ١٣٧٩ ش، ص ٧؛ برنال، ١٣٧٢ ش، صص ١٢٥ - ١٢٦).

١-١-٢. انحطاط بابل

في أواخر عصر بابل، لم يكن للدين أيّ تأثير في طبقات الشعب العليا؛ إذ غدت هذه المدينة مملوءة بالفسق والفجور، وأصبحت مستنقعاً للجنور والظلم، ونموذجاً سيئاً للانتهيار الأخلاقي والشهوة في العالم القديم (كينج، ١٣٧٩ ش، ص ٣٦٧). وفي نهاية عصرها الذهبي، كانت بابل تتخبّط في مستنقع اللهو والخلافات (الانقسامات) الطبقيّة، وكان الأعيان والنبلاء، ولا سيّما الكهنة، منغمسين في الترف وملذات الحياة (كينج، ١٣٧٩ ش، ص ٣٩٤). وقد جاء مصير بابل القديمة بشكلٍ رمزيّ في رؤيا يوحنا ومرآي إرميا (كتاب مقدس، ١٩٩٧ م، مكاشفه يوحنا، ١: ١٨ - ٢٤؛ كتاب مقدس، ١٩٩٧ م، ارمياى نبى، ٥٠: ٢٢ - ٢٥؛ Daniel-Rops, 1943, p. 299-302).

١١٩
سبيل الفكر السبيل الإسلامي

في البحث عن المركزية الدينية من بابل إلى البيت المقدس. ومن مكة المكرمة إلى المدينة المنورة

تشیر الآية ١٠٢ من سورة البقرة أيضاً إلى مدينةٍ أخرى، وهي مملكة سليمان بمركزية أورشلیم الحالية. وبحسب ما جاء في التوراة، عندما تحرك بنو إسرائيل نحو أرض كنعان، دعا الله موسى قائلاً: «قل لبني إسرائيل أن يصنعوا لي مقاماً ومقدساً حتى أسكن بينهم» (كتاب مقدس، ١٩٩٧م، سفر خروج، ٢٥: ١-٨). وقد اعتبر نصب «الخيمة» في التيه، ثم بناء «الهيكل» في القدس، رمزاً لحلول «يهوه» وإقامته بين بني إسرائيل، ودليلاً على نزول «السكينة» عليهم. وتجلّى هذه الدلالة أيضاً في أصل الكلمة (أي؛ الخيمة) باللغتين العبرية واليونانية؛ كما أنّ فعل «سَكَنَ» في العربية يعادل (شخَن) في العبرية، ولفظ الخيمة في العبرية أيضاً مشتقّ منه (عربي، ٢٠٠٤م، ص ٧٠).

١-٢-١. ظهور المسيح

كان يوحنا المعمدان، ابن زكريا، يبشّر بمجيء عيسى المسيح ابن مريم العذراء في منطقة الجليل شمال أورشلیم. ووفقاً لإنجيل يوحنا، كان البيت المقدس في مركز أعمال النبي عيسى عليه السلام. قام عيسى الشاب بأول زيارته العلنية للقدس، فطرد فيها الصيّافرة وأهل السُّحتِ والرِّبا من «الهيكل» (Guignebert, 1933, p. 372-382, 584-625). ومن المنظور اللاهوتي المسيحي، إنّ مجيء عيسى إلى القدس كان مجيئه إلى مهده الديني. فالقدس كانت قاعدة الديانة اليهودية ومركز الإيمان برسالات الأنبياء، وما كان يُقال عن «خيمة الاجتماع» و«هيكل سليمان» من سَكينةٍ ومركزيةٍ، كان يتجسّد في حياة السيد المسيح ورسالته.

١. وفي أعقاب ما تقدّم، ورد الأمر الإلهي بصنع «تابوت العهد» أو تابوت «الشهادة» أيضاً. (كتاب مقدس، ١٩٩٧م، سفر خروج، ٢٥: ١٣-٢٢).

بعد تحرّر بني إسرائيل من نير فرعون، كان ما ترك أثراً أكبر على غالبية بني إسرائيل أكثر من تعاليم وإرشادات موسى، هو أسلوب الحياة الفرعوني الذي بقي في ذاكرتهم بعد انتهاء عصر الذلّ وبداية التحرّر والصحة مع النبيّ الإلهي. وبناءً على ذلك، فور عبورهم مياه النيل ومشاهدتهم غرق فرعون وجنوده، طالب بنو إسرائيل موسى صراحةً بأن يضع لهم «آلهة»، الأمر الذي يعكس تأثير البيئة السابقة على وعيهم الديني ومركزيتهم الروحية. لأنّ قوماً من المشركين كانت لهم «آلهة» يعبدونها، وقد شاهدها أولئك بأعينهم (الأعراف، ١٣٨؛ خوش منش، ١٣٩٩ش، صص ٢٤١ - ٢٤٣). وكانت هذه النظرة متجدّرة في معتقداتٍ دامت لعدّة قرون قبل مجيء النبي موسى عليه السلام، وكانت مصدراً للسلوكيات الغريبة والقاسية التي أبدوها تجاه النبي موسى وغيره من الأنبياء الإلهيين. إنّ حديث القرآن الكريم عن مُلك سليمان يتضمّن جملةً من الخصائص الاستثنائية التي حظي بها ذلك الملك استجابةً لدعائه (ص، ٣٤ - ٤٠). وقد وردت تفاصيل قصة أورشليم ومكانتها ومركزيتها الدينية في مواضع أخرى من القرآن، وأبرزها في سور الأنبياء (٧٨ - ٨٢)، والتل (١٥ - ٤٤)، وسبأ (١٠ - ١٤). وكان تسخير القوى الخارقة للعادة في ملك سليمان امتداداً لأسلوب الحياة في الجنّة الأولى، وشبهاً بما كان من ظلّ السحاب العابر، وزول المنّ والسلوى على بني إسرائيل، وانفلاق الصخر لتفجر الماء، وانفلاق البحر لظهور اليبس، وفوران عين النحاس من الأرض، وصنع الدروع، وغير ذلك ممّا أشارت إليه السور المختلفة. وهذه الحالة تتعارض مع فلسفة «الهبوط». فالله لم يخلق البشر على الأرض ليعمل الجنّ لهم، أو لتظلّ عليهم الغيوم، أو ليعتادوا على الأكل والنوم وربما شيئاً من العبادة، كما أشار أمير المؤمنين عليّ عليه السلام إلى هذه السنة وهذا القانون في خطبة القاصعة (نهج البلاغة، خطبة القاصعة).

وبحسب شهادة التاريخ، وكذلك التوراة والقرآن، فإن المدينة التي كان من المقرر أن تكون مركزاً للسلام والسلام، قد غرقت مراراً وتكراراً في الدماء والنحراب، إما بسبب أفعال سكانها أو جرائم المعتدين عليها. وتعليل هذه الدمار والنحراب المتكرر وتحليلهما مما لا يتسع له هذا المقام. وترى التوراة أن جذور هذا الدمار تكمن في نقض العهد والميثاق الإلهي، وهو جوهر جميع الأديان^١.

وتذكر سورة الإسراء رحلة النبي الخاتم من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وبداية الفصل الأخير في تاريخ الدين، مشيرةً إلى أن نصيب بني إسرائيل من «التوراة التي فيها هدى ونور» كان العلو والفساد السياسي والاقتصادي على طريقة فرعون وقارون (الإسراء، ٣؛ المائة، ٤٤؛ القصص، ٤ و٨٣). وبسبب أعمال بني إسرائيل صار «المسجد الأقصى» ميداناً لغارات الأقوام السفاكة للدماء، كما جاء في القرآن: «وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا - فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَىٰ بِأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا - ... فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا» (الإسراء، ٤ - ٧).

١-٣. روما (رومة)

شهدت روما عبر أطوار تاريخها تقلبات عديدة بين طرفي النقيض: «المدينة الإلهية» و«الانحطاط والأفول». ويمكن تتبع مرتبة «المدينة الإلهية» في روم في

١. «فقال الله لسليمان: بما أنك فعلت هذا ولم تحفظ فرائضي التي أمرتك بها، فإني سأنزع عنك الملك وسأعطيه لعبدك. ولكنني لن أفعل هذا في أيامك إكراماً لداود أبوك، بل سأنزعه من يد ابنك. ومع ذلك، لن أنزع المملكة كلها، بل سأعطي سبطاً واحداً لابنك بسبب عبدي داود، وبسبب أورشليم التي اخترتها. وأقام الله خصماً لسليمان». (كتاب مقدس، ١٩٩٧م، اول بادشاهان، ١١: ١١-١٤؛ ارمياى نبى، ١١: ٦-١).

مرحلتين: قبل المسيحية وبعدها. ولم يكن موضوع «عوامل عظمة الرومان وأسباب انحطاطهم» أمرًا بعيدًا عن اهتمام السياسيين والمؤرخين وباحثي تاريخ الأديان وفلسفة التاريخ واللاهوت المسيحي، وهكذا غدت هذه العظمة وذلك الانحطاط مادةً أصيلةً دفعت القديس أوغسطين^١ إلى تأليف كتابه الشهير «مدينة الله»^٢. ويثبت أوغسطين في كتابه أنّ «مدينة الله»، التي تمثل مجتمع الموحدين، ظلت حاضرةً في التاريخ على الدوام، وأنّ السعادة الأخروية مختصة بهم وحدهم. ويقول: «إنّ هذه المدينة السماوية، ما دامت زائرةً على وجه الأرض، فإنها تستدعي أبناءها من جميع الأمم (إذ مهما بلغت الاختلافات بين الأمم، فإنها كلّها تشترك في غاية واحدة هي السكينة الأرضية)، شريطة ألا يُقيموا عائقًا أمام الدين الذي يعلم وجوب عبادة الله الواحد، المتعال، والحقيقي» (Augustin, 1855).

ويعرف أوغسطين في كتابه «روما» بأنها «مدينة الشيطان»^٣ أو «مدينة الشر»^٤. وهذان اللقبان في الحقيقة هما نفس اللقبين اللذين أُطلقا على «بابل»، كما يرد في رؤيا يوحنا حين يتحدّث عن شرّها وفسادها (دورانت، ١٣٨٥ ش، صص ١٤٩ - ١٥٣؛ مجتهد، ١٣٧٥ ش، ص ٥٤)، وقد أُشير إلى هذا المعنى كذلك في الآية ١٠٢ من سورة البقرة.

١. «ماركوس أوريليوس أوغسطينوس، المعروف بالقديس أوغسطين أو القديس أوغسطينوس (Saint Augustinus)، فيلسوف ولاهوتي مسيحي يُعدّ من رواد العصور الوسطى (٣٥٤-٤٣٠ م). وقد لعب دوراً محورياً في صياغة الفكر اليوناني ضمن التصوّف والأدب المسيحي، وفي نشر وثبيت الدين المسيحي في أوروبا، مما شكّل أساساً لبدع فاسدة وذات تأثير فعّال في التألّه المسيحي في القرون اللاحقة (اندرهيل، ١٣٩٢ ش، صص ٧٧-٧٨).

2. Civitate de Dei
3. Civitas Diaboli
4. Civitas malum

٢. نحو أم القرى

أمر الله سبحانه وتعالى إبراهيم عليه السلام أن يرفع قواعد البيت في الموضع المعلوم، ويدعو الناس إلى الحج، ليأتوا من كلّ حدب وصوب نحو هذه «النقطة الجامعة»، فيشهدوا منافعهم، ويحيوا قلوبهم وألسنتهم بذكر الله المتعال (الحج، ٢٦ - ٣٢). ولتحقيق هذه الدعوة، وقف إبراهيم على جبل صغير في صحراء واسعة وملتهبة (إبراهيم، ٣٧) داعياً الناس إلى هذا الأمر، قائلاً: «هلمّ إلى الحجّ»، أي أسرعوا إلى الحجّ وتوجهوا إلى بيت المعبود (الكليني، ١٣٦٥ ش، ج ٤، ص ٢٠٦؛ الصدوق، ١٣٨٠ ش، ج ٢، ص ٤١٩؛ الصدوق، ١٤١٣ هـ، ج ٢، ص ٢٣٢). وكان هذا «بيت الله»، وبالتالي «بيت جميع الناس» و«أول بيت عامّ وُضع للناس» تُفتح أبوابه لهم (آل عمران، ٩٦-٩٧)، وقد أصبح يُعرف بـ «أمّ القرى» و«الحرمّ الآمن» الإلهي وبقية هذه الأوصاف ملازمة لها عبر العصور: «و كذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً لتُنذِر أمّ القرى ومن حولها وتُنذِر يوم الجمع لا ريب فيه فريق في الجنة وفريق في السعير» (الشورى، ٧). «و إذ جعلنا البيت مثابة للناس وأماناً واتخذوا من مقام إبراهيم مصلىً وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود» (البقرة، ١٢٥). وقد ورد ذكر المسجد الحرام ومكة في القرآن الكريم بعدة ألقاب وأسماء، منها: «أمّ القرى»، «البيت»، «البيت الحرام»، «البيت المعمور»، «البلد الأمين»، «البلد الآمن»، «الحرم الآمن»، «مكة»، «بكة»، «الكعبة»، «المسجد الحرام»، «البيت العام»، و«ما يكون سبباً للنظام والاستقرار وحياة المجتمع الإسلامي» و«مكان عودة العباد إلى الله وتوبتهم إليه»، و«موضع الثواب والأجر والعبادة». ومن بين هذه التسميات، تبرز أمّ القرى كاسم يذكّر بمفهوم «المدينة الأم»، وهو مصطلح استخدم في القرون الأخيرة في بعض اللغات

الأوروبية^١ إبان المرحلة التي كانت فيها الصناعة الأوروبية الحديثة تغير ملامح العالم وهيئته الظاهرة، وتنتج واقعيةً جديدةً تصوغها الآلة وتُشكّلها، فينشأ - تبعاً لذلك - مدارٌّ ومحورٌ ومركزيةٌ حضاريةٌ ماديةٌ للبلدان الأضعف. (خوش منش، ١٣٩٨ ش،

صص ٤٩-٥٢؛ Philipson, 1990, p. 145-151؛ Hobson, 2004, p. 8-225).

٣. مركزية أم القرى^٢

لقد كان موضوع «المركزية» في المدن المقدّسة محلّ اهتمام منذ العصور القديمة، وإنّ تعبير «أم القرى» يحمّل إشارةً إلى هذه المركزية وإلى فضلٍ تقدّمها في الوجود. ولكن كيف كانت هذه المركزية؟ إنّ النقطة القديمة في جنوب غرب آسيا هي «بلاد الرافدين»، الواقعة بين نهريّن تاريخيّين. أمّا البحر القريب منها فهو البحر الذي عُرف منذ العصور القديمة بأنه يمتاز بالموقع الوسطي والمركزية، إذ كان يُسمّى بـ «البحر المتوسط» أو «البحر الواقع في وسط الأرض»، ويتيح الوصول المباشر إلى أربع قارات ومراكز الحضارات الكبرى في العالم القديم. لقد ارتبط اسم هذه المنطقة، من وجهة نظر المراقبين من خارجها، بمفهوم «التوسط»، وأطلق عليها اسم «الشرق الأوسط». ومنشأ هذه الأمة هو أم القرى، ودينها هو دين الحنيفية، دين التوحيد الخالص، والتسليم لله العليّ الكبير، والدعوة إلى القسط والعدل، والقسطاس المستقيم، والصراف المستقيم. وكان بيت الكعبة أول بيت أُسس باسم الله ولصالح الناس جميعاً، ومنه بُنيت آلاف

١. مأخوذ من Metropolis اليونانية بمعنى «المدينة الأم» (Dubois & et al., 2006, p. 615).

٢. «وما كان ربك مهلك القرى حتّى يبعث في أمّها رسولاً يتلوا عليهم آياتنا وما تكأ مهلكي القرى إلّا وأهلها ظالمون» (القصص، ٥٩). واستناداً إلى هذه الآية، فإنّ القرآن الكريم يقرّ بنوع من «أم القرى»، بل وقد حدّد لها أجزاءً كبيرة وصغيرة.

البيوت، سواء كانت أديرة أو كنائس أو مساجد في أماكن قريبة وبعيدة، جميعها باسم الله. وكان أول قطعة من الأرض تم تهيئتها وإعمارها على يد إبراهيم الخليل (طالقاني، ١٣٦١ش، ص ٨)، وهو البيت الذي وُضع فيه أساس التوحيد، والمدينة التي نشأت بعيداً عن أدران بلاد الرافدين وضوضائها، على أطراف البحر المتوسط، لكنها انحرفت تدريجياً نحو الشرك والانحطاط.

ألم يكن هذا في حد ذاته رمزاً وتجلياً لمفاهيم من قبيل «الاستواء وسلطان الله العظيم على عرش الملك» و«استقرار عرشه على الماء» ليكون ذلك سبباً في أن «تنبثق الحياة كلها منه»؟ إن مثل هذه الآيات التي تُوضح لنا هذه المفاهيم المتداخلة والمتشابهة، ينبغي تأملها والتدبر فيها بعناية فائقة وتحيص دقيق، ومنها:

✓ «إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ» (الأعراف، ٥٤؛ الحديد، ٤).

✓ «وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ» (هود، ٧).

✓ «أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ» (الأنبياء، ٣٠).

٤. مدينة النبي

لقد تعرضت مدينة مكة عبر التاريخ للعديد من تقلبات وتحولات عديدة، وتدرجياً، على مدى قرون الفترة التي سبقت بعثة الرسول الأكرم (ﷺ)، تحولت إلى بؤرة للشرك (اسدآبادي، ١٩٢٦م، صص ٢٨ - ٣٠). ومركز للأمية والعصبية

١. «يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا بين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير (مائده، ١٩)؛ لتُنذِر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون» (القصص، ٤٦).

الجاهليّة، ولم تكن تملك الأهليّة لاستضافة الرسول وتشكّل الحكومة النبوّية فيها. ومع أنّ مكّة المكرّمة، بفضل وجود الكعبة المشرفة والمسجد الحرام فيها، كانت - لا تزال - موضع تكريم وتعظيم، إلّا أنّ تلك القيمة والميزة العظمى التي اهتمّ بها الله سبحانه من أجلها هي حضور وحلول شخص النبي الأكرم ﷺ فيها؛ إذ انتقلت هذه القيمة والكرامة إلى مدينة المدينة بهجرته، وخرجت مكّة عن موقع المحوريّة والمركزيّة، وحلّت في المرتبة الثانية من الكرامة والعظمة (لساني فشاركي؛ مرادى زنجاني، ١٣٩٢ش، ص ٣١٦). تمكّن الرسول ﷺ في «المدينة» من نشر دعوته، وإبرام ميثاق الأخوة بين المهاجرين والأنصار، وإقامة علاقات مع قبائل جزيرة العرب وبعض الجيران، وفي النهاية، قدّم صورة واضحة شاملة ومنهجية لمدينة قائمة على الأخلاق والعدالة والروحانيّة. فقد زُرعت في المدينة بذور الإنسانيّة والمدينة المحمّدية، نجد الإشارة إليها في الآية الأخيرة من سورة الفتح، في وصف بليغ: «... كَرَّعَ أَخْرَجَ شَطَاءَهُ فَازَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوْقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ...» (الفتح، ٢٩). إنّ ما قام به الرسول الأكرم ﷺ لم يكن تربية المواطن بمعنى الأفراد المنتمين إلى مجرد نقطة جغرافيّة أو عرق قومي؛ بل إنّ الرسول الأكرم ﷺ طرح المفهوم العالمي لـ «الأمة»، وبين ورث أبعاد الانتماء إلى نطاقها ومجالها بالقول والفعل والتقرير. إنّ «مدينة النبي» في مدرسته الفكرية ليست بالضرورة تلك المدينة التي رأيناها بالأمس وزاها اليوم، بل إنّ المفاهيم والقيم السامية لمثل هذه المدينة يمكن أن تتوسّع وتنتشر إلى جميع أقطار الأرض ونواحيها. غير أنّه لا بدّ من القول إنّ الجوهر الأساس لما قدّمه الرسول الأكرم ﷺ للعائلة البشريّة والمجتمع الإنساني، هي تلك الأمور الأربعة المذكورة في مطلع سورة الجمعة، التي حسب كثير من أبناء الأمة الإسلامية - لفرط وضوحها - أنّهم قد استوفوا حقّها وأنجزوها بالفعل، وهي: «تلاوة الآيات الإلهيّة، وتزكية النفس، وتعليم الكتاب، وتعليم الحكمة».

يمكن اعتبار المدينة خلاصةً لتجارب الأنبياء في تأسيس مركزية دينية ونموذجاً أرقى وأسمى في هذا المجال. فالمدينة هي فنُّ العيش المشترك إلى جانب الآخرين؛ وبناءً على ذلك، يمكن - منطقياً - الاستنتاج بأنَّ الإسلام في جوهره حضارةٌ تأسيسيةٌ ببناءً ومدنيةٌ، لا حضارةٌ عدوانيةٌ هجوميةٌ. ففي المدن الإسلامية، كان هناك شعور بالانتماء إلى مجتمعٍ مدنيٍّ مصحوب بثقافةٍ مشتركةٍ ونمط حياةٍ جماعيٍّ؛ في حين كانت العلاقات بين المدن الأخرى - كما في اليونان القديمة مثلاً - قائمةً على منافساتٍ قاسيةٍ وأحياناً وحشيةٍ، ألحقت بالمجتمعات البشرية تكاليف إنسانيةً جسيمةً وخسائرَ ماليةً فادحةً.

٤-١. خصائص مدينة النبي ﷺ

بعض خصائص مدينة النبي ﷺ على النحو التالي:

٤-١-١. الموقع المحوري لرسول الله ﷺ

نظراً إلى ما تقدّم في الفصل الرابع بشأن «المركزية» و«المركزية الدينية»، يمكن القول إنَّ النبيَّ يمثّل محور مدينة «المدينة» وبوجوده وحضوره تكتسب هذه المدينة هويتها، ويجب على مواطني هذه المدينة مراعاة الشخصية القانونية للرسول بوصفه خاتم المرسلين الإلهيين وزعيم المدينة والمجتمع الإسلامي بأسره. وإنَّ عنوان «مواطنة مدينة النبي» - بناءً على عموم ما يفهم من إطلاقات الخطابات القرآنية - لا يشير إلى أولئك الذين يحملون حالياً هوية دولة الحجاز، بل يشمل هذا العنوان جميع الذين يلزمون أنفسهم بطاعة النبي ﷺ واتباع أوامره وتعاليمه الواردة في القرآن الكريم والسيرة والسنة كما في قوله تعالى: «وَأَعْلَمُوا أَنَّ

١. للاطلاع على آراء المفسرين حول هذا الفهم، انظر: الصادق الطهراني، ١٣٦٦ش، ج ١٣، صص ٣٣٤-

٣٣٥؛ فضل الله، ١٤١٩هـ، ج ٨، صص ٤٥١-٤٤٩؛ حوى، ١٤٢٤هـ، ج ٤، ص ٢٣٧١.

فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ» (الحجرات، ٧).

٢-١-٤. العرض النظري والعملي لـ «الإسلام» و«دين الحنيفية» ودين «الفطرة»

إن صورة جامعة بين «الإسلام» و«الحنيفية» لا نجدتها فيما بين الأنبياء إلا عند إبراهيم، ولا في الكتب السماوية إلا في القرآن، وبالأبعاد الواسعة التي يعرضها. وفي خواتيم السور المكية من القرآن تبرز سورة مدنية تستوقف الأنظار بما تبسطه من بيان لمسار أمة الكفر والشرك، وبما تظهره من «البينة» التي روحها - كما يقول العلامة الطباطبائي (١٤١٧هـ، ج ٢٠، ص ٣٣٩) - «الحنيفية» من الحنف وهو الميل عن جانبي الإفراط والتفريط إلى حاق وسط الاعتدال وقد سمى الله تعالى الإسلام ديناً حنيفاً لأنه يأمر في جميع الأمور بلزوم الاعتدال والتحرز عن الإفراط وتفريط» (الطباطبائي، ١٤١٧ق، ج ٢٠، ص ٣٣٩)، فتجذب الأنظار إليها: «وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيمَةِ» (البينة، ٥). وهذه الحنيفية التي تدعو في وسط السورة إلى الفطرة وحق وسط الاعتدال، هي نفسها - بتعبير أمير المؤمنين عليه السلام في الخطبة الشقشقية - صاحبة «محل القطب من الرحي». وقد ذكر القرآن الكريم الحنيفية بوصفها خلاصة وعصارة للشرائع السابقة، وصورها في مواضع متعددة في إطار سيرة إبراهيم عليه السلام، مؤكداً اتباع النبي الأكرم صلى الله عليه وآله لمنهجه وطريقته (الأنعام، ١٦٠؛ النحل، ١٢٠، ١٢٣).

٣-١-٤. فضيلة التقوى والعلم والحكمة

إن التحول الذي أحدثه النبي الأكرم في المدينة في المجالات العلمية والعقلية والثقافية للمجتمع العربي، بل وللمجتمع الإنساني بأسره، وتشجيعه الناس على تعلم المعارف والفنون، أمر غني عن البيان والإيضاح. فقد كانت قضية التعليم والتعلم

١٢٩
فكر السبيل الإسلامي

في البحث عن المركزية الدينية من جابل إلى البيت المقدس. ومن مكة المكرمة إلى المدينة المنورة

منذ بداية الدعوة النبوية في مكة، ثم بعد الهجرة إلى المدينة تسير جنباً إلى جنب مع قضية العبادة في مسجد النبي ﷺ. فنحن نجد في سيرة الأنبياء السابقين في القرآن الكريم بلاغهم وبيانهم لأقوامهم، غير أننا لا نجد حديثاً صريحاً عن نزول كتاب على قلوبهم، ولا عن شؤونهم التعليمية في تدريس العلم والحكمة. إن الرسول الأعظم ﷺ امتاز في هذا المجال - كما في العديد من الشؤون الأخرى - بخصوصية وتفرد، وهناك آيات كثيرة في أرجاء القرآن الكريم تظهر الأبعاد العميقة لعلمه وحكمته، ودوره بوصفه معلماً ومرشياً للأمة. وفي القرآن الكريم والروايات الإسلامية، يُجعل العقل والحكمة - وليس بالضرورة المعرفة و«مجرد القراءة والكتابة» - في مقابل «الجاهلية». وقد اشتهر الحديث المفصل لـ «جنود العقل والجهل» في مطلع كتاب الكافي (الكليني، ١٣٦٥ ش، ج ١، صص ٣-١٠).

٤-١-٤. سيادة الشريعة وقانون العدل الإلهي

ما دام الإسلام في مكة، كان ديناً وأساساً للعقيدة والعمل والأخلاق، وفي المدينة أُسس نظام الحكم أيضاً على أساس الدين (شهيد، ١٣٦٢ ش، ص ٩٣). كما أنّ مظاهر الدين الكاملة - ومنها التشريع والقضاء - ظهرت في المدينة بعد قيام الدولة النبوية. وأما مبدأ الحق ووجوب الطاعة له - وهو من أمهات المباحث في النظم الحقوقية - فقد جعل في الشريعة والقانون النبوي راجعاً إلى ذات الله رب العالمين، الفاطر القدير (البقرة، ١٤٧؛ آل عمران، ٦٠). الهدف الرئيس والجوهر للشريعة والقانون اللذين جاء بهما النبي ﷺ، وعمل على ترسيخهما نظرياً وعملياً في المدينة، هو تحقيق سعادة البشر من خلال إقامة نظامٍ سياسيٍّ عادلٍ،

١. واختيار هذه الأسماء الإلهية يعود إلى المكانة الخاصة لهذه المفاهيم في مبادئ القانون (كاتوزيان، ١٣٦٦ ش، صص ٥-٨)؛ وإن كانت دلالات القرآن في الآيات الأخيرة والآيات المتعددة الحاوية لمضمونها تتجاوز بكثير أمر النظام القانوني، مشيرةً إلى أمرٍ عظيمٍ هو الحقيقة.

وترسيخ العدالة الاجتماعية، وتعديل توزيع الثروات على أساس القسط والعدل والإنصاف، وتقسيم الأعمال وفق معيار الكفاءة والاستحقاق، ونفي الإضرار بالغير أو التعرض للضرر، والتحرر من نجات الشرك والخرافة والأوهام وإصرها وأغلاها (الأعراف، ١٥٧)، وهداية الضالين، وإصلاح الخاطئ، وتنظيم الروابط والعلاقات العمودية بين المخلوق والخالق والعلاقات الأفقية بين العباد، فضلاً عن العناية بأوضاع العبيد والأسرى والمستضعفين الذين كانوا يعيشون في أسوأ الظروف والأحوال في المراكز الحضارية للعالم آنذاك، حيث أخذت أحوالهم تتحسن بفضل التدابير والتعليم الدينية والثقافية والاجتماعية الفريدة. إن نوعية وسرعة سيادة الحقوق والقانون في «مدينة النبي» لا نظير لها في أي مجتمع آخر. وسعة ونطاق حقوق الإسلام واشتماله على جميع شؤون الحياة الخاصة والاجتماعية لكل فرد مسلم، والواجبات الدينية والأخلاقية والمدنية والجنائية لكل فرد مسلم، وما سمي لاحقاً بالإجراءات القضائية (قانون المرافعات) وحقوق الإنسان وحقوق الحيوان، لا يمكن قياسه بأي من القوانين العرفية في دول العالم الغربي. (Britanica, Law, vol. 12, p. 714؛ صالح، ١٣٤٨ش، صص ١٥٢ - ١٥٤).

٥-١-٤. سلامة المعاش

إن دور المعاش والاقتصاد السليم في خلق الأجواء والثقافة السليمة أمر واضح. ففي بعض السور المدنية، ولا سيما «السور المسبحات» التي تتحدث عن تسبيح الرب والمكانة البارزة للرسول ﷺ وتهدف إلى تزكية وتطهير المجتمع

١. وأما نجد التأكيدات المتعددة للقرآن في هذه المجالات مجتمعة في فاتحة الكتاب وخاتمته، مثل آيات (البقرة: ٣، والكوثر: ٢، والماعون: جميع آياتها، والعصر: ٣)، ومواضع أخرى من هذا الكتاب، بوضوح تام.

الإسلامي، تبرز بعض الآيات في هذا المجال بوضوح. فلنتأمل الآيات ٩ إلى ١١ من سورة الجمعة؛ وهي سورة جمعت بين التسبيح والتقدیس بذكر الله، وإقامة الصلاة، واتباع رسول الله ﷺ، وطلب الرزق من الله العظيم، والتجارة الطيبة الطاهرة في فضاء المدينة وما وراءها، فتتصل كلُّ هذه الأبعاد معاً على نحو حسنٍ متكامل. إنَّ سورة الجمعة تقع بين سورتي «الصف» و«المنافقون»^١، وهذه السور مجتمعةً ترسم أطراً مهمةً للحياة العقائدية والثقافية والاقتصادية والعسكرية في المجتمع الإسلامي. وكان جزءٌ من اقتصاد المدينة في زمن هجرة النبي ﷺ تحت سيطرة اليهود من جهة وكان جزءٌ من المال والثروة بيد المنافقين من جهة أخرى. ونرى التأكيدات القرآنية في هذه السور على سلامة وحرية الاقتصاد الإسلامي من الشبكات الملوثة (الفاصلة) التي تعادي الحياة والعزة الإسلامية (المنافقون، ٧-٩). وتُنطبق الآية ٩ في سورتي الصف والجمعة من حيث المفهوم والمضمون بشكلٍ واضح. وبناءً على النموذج القرآني، تنبثق من الصفوف التي تُنشأ للتسبيح والتقدیس و«ذكر الله» يوم الجمعة، صفوفٌ تصبح كالبنیان المرصوص، مكبرةً وحارسةً لبيان عزة الأمة الإسلامية: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَهُمْ بَنِيَانٌ مَرصُوصٌ» (الصف، ٤). ومن الواضح أنَّ حديث القرآن الكريم عن الاقتصاد والمعاش لا يقتصر على تلبية الاحتياجات الجسدية فحسب، وفي هذه السورة الأخيرة نفسها ينتهي الحديث إلى تلك التجارة الحقيقية والمتعالية (الصف، ١٠-١٣).

٦-١-٤. الأمن والسلام والسكينة

١. إنَّ جمع سور القرآن وترتيبها وفقاً لرأي الله تعالى والرسول الأكرم ﷺ يكتسب أدواراً مهمة في أمر التدبر في القرآن الكريم (خوش منش، ١٣٩٩ش، صص ١٠-١٥).

إنَّ وصفَ النبيِّ الأكرمِ ﷺ بـ«نبيِّ الإسلام» ليس وصفاً دقيقاً؛ فالنبيُّ الأكرمُ ﷺ هو نبيُّ الرحمة، والمبعوثُ إلى جميعِ الناس. ومع بعثته، حلَّ الأمنُ والسَّلام، والرحمة، والسكينة على جزيرة العرب، ثمَّ على المجتمعِ الإنسانيِّ بأسره بأشكالٍ شتى. وتوضَّح السيرة والتاريخ النبوي وعِترَةُ النبيِّ بجلاء أنَّ أساس الدعوة النبوية كان قائماً على الرحمة، والمودَّة، والحكمة، والموعظة الحسنة، وأنَّ رسالته لم تكن دعوة للحرب مع الأقوام، إلَّا في حالات التعرُّض للأذى والعدوان أو عندما يصطَف الأعداء للقتال. بعض الغزوات التي قادها النبيُّ الأكرمُ ﷺ كانت نوعاً من إظهارِ القوَّة أمام جيوش الكفر والشرك، لكنها في النهاية لم تؤدِّ إلى الحروب والقتل إلَّا عند الضرورة. كما أنَّ النبيِّ، وأمير المؤمنين، والإمام الحسن، والإمام الحسين أولوا أقصى درجات العناية بالبعد الإنساني في المعارك. وقد كُتِب الكثير عن غزوات النبيِّ ﷺ، وعن مفهوم الجهاد في الإسلام، وعن ضرورة تماسك الأُمَّة وقوتها ويقظتها أمام الأعداء، وما يزال في هذا الباب مجالٌ واسعٌ للبحث. على سبيل المثال، في سورة آل عمران، نرى النبيَّ كقائد عسكريٍّ حاضر على أرض المعركة حضوراً كاملاً، مُشرفاً على مجريات القتال، يُرتبُ جنودَ الإسلام في مواقعهم ويثبتُ قلوبهم ويشجِّدُ عزائمهم (آل عمران، ١٢١). كما نراه في الأجواء العسكرية لسور الأنفال والتوبة، وفي مواضع متعدِّدة من سور البقرة وآل عمران والأحزاب والحشر والفتح وغيرها، في دور القيادة الاستراتيجية والعسكرية خلال غزوات بدر، أحد، الخندق، خيبر، حنين، تبوك، وغيرها. وقد جعل الله الأمن النفسي والثقافي والإعلامي لمدينة النبيِّ، موضعَ عنايته، وهدد بشدَّة أولئك الذين سعوا إلى تقويض هذا الأمن. في هذا السياق، يمكن ذكر مجموعات عديدة من الآيات في هذا الصدد؛ ومنها الآيات التالية التي تختلف فيما بينها من حيث الموضوع، لكن تشترك جميعها في توجيه الانتباه إلى مراعاة الأمن وطهارة الفضاء العام للمجتمع الإسلامي مثل قوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا إنَّ

١٣٣
الفكر السياسي الإسلامي

في البحث عن المركزية الدينية من بابل إلى البيت المقدس. ومن مكة المكرمة إلى المدينة المنورة

جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بَنِيًّا فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلَيَّ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ»
 (الحجرات، ٦). وكذلك قوله تعالى: «لَئِن لَّمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ
 وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِقَنَّكُمْ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا» (الأحزاب،
 ٦٠). كما تتحدث الآية السابقة لهذه الآية الأخيرة من سورة الأحزاب أيضاً عن
 صيانة الأعراض والعفة العامة.

النتيجة

أظهرت نتائج هذا البحث، بعد دراسة أربع مدن دينية مهمة (بابل، أورشليم،
 مكة، والمدينة)، أن أيّاً من المدن الثلاث الأولى، رغم كل ما كانت تتمتع به
 من مزايا وخصائص جعلتها مركزاً دينياً في زمانها، لم تستطع تلبية البحث
 الإنساني عن مركزية دينية كاملة، ولا تحقيق تطورات البشر السامية في التقرب
 إلى الخالق من خلال المدن الإلهية. وقد تبين أن كل واحدة منها، نتيجة للفساد
 والانحراف الذي نشأ على مدى السنوات من سلوك سكانها، لم تكن أهلاً
 لاكتساب هذه المكانة، أو حتى إذا اقتربت منها بفضل وجود نبيٍّ ما، سرعان ما
 عجزت عن الحفاظ على هذه الفاعلية والكفاءة. في هذا السياق، المدينة المنورة،
 التي تشرفت بوجود النبي الأكرم ﷺ وبلقب «مدينة النبي»، حظيت باهتمام
 خاص من الله عز وجل. فقد أرسى النبي في هذه المدينة إصلاحات شاملة
 وتربية متكاملة على أساس المبادئ المنبثقة من الكلام الإلهي والوحي، وبطريقة
 تربوية إلهية، لتشكّل نموذجاً جديداً في إقامة المدن واستثمارها لخدمة الإنسان
 والمجتمع. وقد أسهمت هذه الإصلاحات والسّمات المتميزة للمدينة في مجالات
 متعددة، منها الحضارة، الثقافة، الاقتصاد، الشريعة الإلهية، وغيرها، في تمييز
 المدينة المنورة عن باقي مدن العالم حتى يومنا هذا. لقد تحوّلت المدينة إلى مركزٍ
 دينيٍّ وسياسيٍّ، وجذبت قلوب وأفكار «أفواج» الناس جذباً سريعاً متتابعاً. ومن

نتائج هذا البحث يتبين أنّ مدينة النبيّ هي المدينة الوحيدة التي دخلها رسولُ ربّ العالمين ﷺ بوصفه نبياً، بعد مبايعة القبائل واتخاذ التمهيدات والتدابير الحكيمة، فأصبح كبيرها، وبسط الله يده فيها، وقضى فيها عشرَ سنواتٍ في تعليم أهلها وتربيتهم، وعاش بين أفرادها عيشاً مشتركاً متآلفاً، على اختلاف قبائلهم وأديانهم وثقافتهم. وخلال فترة قصيرة، وبسرعة وعمق أكبر مما تحقق في الحضارات الأخرى، بدأ النبي ﷺ أولاً في مكة ثم في المدينة، باكتشاف وتفصيل عناصر حضارية مهمة تشمل: السياسة، الاقتصاد الصحيح، القوة العسكرية، الثقافة، والأخلاق الإنسانية. وبفضل ما سُمّي بـ «الجهاد الكبير» (الفرقان، ٥٢) الأخلاقي، الثقافي، العلمي، والعسكري، تحوّل المجتمع الإسلامي الناشئ - الذي كانت «العصبية» القبلية روح بقاءه وقوامه - في أقلّ من قرنٍ واحد، ومع ما أصابه من آفات وانحرافات، إلى أمة تشدّ قلوب أفرادها الفطرة والعهد والمواثيق الإلهية. ونشأ عن ذلك «كيان» ذو طبيعة وهوية سياسية وعسكرية، استطاع أن يبسط سلطانه على أجزاء واسعة من أراضي الإمبراطورية الرومانية السابقة على ضفتي البحر المتوسط، من جنوب غرب آسيا إلى شمال غرب أفريقيا وجنوب أوروبا، كما استولى على إمبراطورية الساسانيين.

١٣٥

الفكر السياسي الإسلامي

في البحث عن المركزية الدينية من بابل إلى البيت المقدس. ومن مكة المكرمة إلى المدينة المنورة

المصادر

* القرآن الكريم

** نهج البلاغة

آندرهیل، اولین. (۱۳۹۲ش). عارفان مسیحی (مترجم: حمید محمدیان واحمدرضا مؤیدی). قم: دانشگاه ادیان ومذاهب.

اسدآبادی، لطف الله. (۱۹۲۶م). شرح حال وآثار سید جمال الدین اسدآبادی معروف به افغانی. برلین: انتشارات ایرانشهر.

برنال، جان دزموند. (۱۳۷۲ش)، فیزیک در تاریخ (مترجم: علی معصومی)، تهران: فرهنگان.

حوی، سعید. (۱۴۲۴ق). الأساس فی التفسیر (ج ۴). القاهرة: دارالسلام.

خوش منش، ابوالفضل. (۱۳۹۲ش). از شهر خدا تا ام القری. پژوهشنامه تاریخ تمدن اسلامی، ۴۶ (۱)، صص ۱-۱۹.

خوش منش، ابوالفضل. (۱۳۹۳ش). ام القری، پایگاه جهانی امت وسط. پژوهش های قرآن وحديث، ۴۷ (۱)، صص ۵۳-۷۲.

خوش منش، ابوالفضل. (۱۳۹۸ش). زبان قرآن، ماهیت، هویت، جایگاه وآموزش آن. قم: پژوهشگاه حوزه ودانشگاه.

خوش منش، ابوالفضل. (۱۳۹۹ش). تناسب سوره ها. تهران: مرکز طبع ونشر قرآن کریم.

خوش منش، ابوالفضل. (۱۴۰۰ش). موضوع بازگشت وسکینه انسان در حیات روحی او؛ جستاری در کتاب مقدس وقرآن با تأکید بر سه مرکزیت دینی.

ادیان وعرفان، ۵۴ (۲)، صص ۳۲۵-۳۴۹.

دورانت، ویلیام. (۱۳۸۵ش). شهر خدا، ساوونارولا وجمهوری (مترجم: کوروش زعیم). تهران: ایران مهر.
روشن، مرغریت. (۱۹۸۰م). علوم البابلیین (المترجم: یوسف حی). بیروت: الدار العربية للموسوعات.

شهیدی، سید جعفر. (۱۳۶۲ش). تاریخ تحلیلی اسلام، تهران: نشر دانشگاهی.
الصادقی الطهرانی، محمد. (۱۳۶۶ش). الفرقان فی تفسیر القرآن بالقرآن والسنة (ج ۱۳). تهران: فرهنگ اسلامی.

صالح، علی پاشا. (۱۳۴۸ش). سرگذشت قانون، مباحثی از تاریخ حقوق - دورنمایی از روزگاران پیشین تا امروز. تهران: دانشگاه تهران.

الصدوق، محمد بن علی. (۱۳۸۰ش). علل الشرائع (المحقق: محمدجواد ذهنی تهرانی، ج ۲). قم: انتشارات مؤمنین.

الصدوق، محمد بن علی. (۱۴۱۳هـ). من لایحضره الفقیه (ج ۲). قم: مؤسسه النشر الاسلامی التابعة لجماعة المدرسین.

طالقانی، سید محمود. (۱۳۶۰ش). پرتوی از قرآن (ج ۵). تهران: شرکت سهامی انتشار.

طالقانی، سید محمود. (۱۳۶۱ش). حج (به سوی خدا می رویم با حج). تهران: مشعر.

الطباطبائی، محمدحسین. (۱۴۱۷ق). المیزان فی تفسیر القرآن (ج ۲۰). قم: مؤسسه النشر الاسلامی التابعة لجماعة المدرسین.

الطبري، محمد بن جریر. (۱۹۶۶م). تاریخ الطبري (المحقق: محمد ابوالفضل ابراهیم، ج ۳). مصر: دارالمعارف.

عربی، نورالدین. (۲۰۰۴م). قراءة صوفیة لانجیل یوحنا. بیروت: دارالجليل.

فضل الله، محمدحسین. (۱۴۱۹هـ). تفسیر من وحی القرآن (ج ۸). بیروت: دارالملاک للطباعة والنشر.

- کاتوزیان، ناصر. (۱۳۶۶ش). مقدمه علم حقوق و مطالعه در حقوق خصوصی ایران. تهران: به نشر.
- کتاب مقدس. (۱۹۹۷م). لندن: انجمن پخش کتب مقدس در میان ملل.
- الکلبینی، محمد بن یعقوب. (۱۳۶۵ش). الکافی (المصحح: علی اکبر غفاری، ج ۱، ۴). طهران: دارالکتب الإسلامية.
- کینگ، لئونارد و ویلیام. (۱۳۷۹ش). تاریخ بابل از تأسیس سلطنت تا غلبه ایرانیان (مترجم: رقیه بهزادی). تهران: علمی و فرهنگی.
- لسانی فشارکی، محمدعلی؛ مرادی زنجانی، حسین. (۱۳۹۲ش). درآمدی بر مطالعات قرآنی در سیره نبوی. قم: نصاب.
- مجتهدی، کریم. (۱۳۷۵ش). فلسفه در قرون وسطی. تهران: امیرکبیر.
- Aegerter (1947). *Les grandes religions*. Paris: Presse Universitaire de France.
- Augustin, S. (1855). *La Cité de Dieu. Traduction Nouvelle Avec une introduction et des notes Par M. Émile Saisset*. Paris : Charpentier. Librairie- éditeur.
- Breplos, V.B. (1996). *Petit dictionnaire de la Bible*. Coordination de Joseph Longton et Ferdinand Poswick, Diocèse Rottenburg-Stuttgart.
- Daniel-Repos (1943). *Histoire Sainte. le peuple de la Bible*, Edité par Arthème Fayard.
- Dubois, J., Mitterend, H. & Dauzat, a. (2006). *Grand dictionnaire étymologique et historique du français*. Paris: Larousse.
- Guignebert, Ch. (1933). *La Renaissance du Livre*. Paris.
- Hobson, J.M. (2004). *The eastern origins of western civilization*. Cambridge University Press.

La Bible (1970), *Traduction et annotation d'Émile Osty et Joseph Trinquet*, Paris, Rencontre.

Philipson, R. (1990). *Linguistic imperialism, a conspiracy or a conspiracy of silence*. Oxford University Press.

Robert, Paule (1981), *Le Robert-Dictionnaire alphabétique et analogique de la langue française*, ouvrage couronné par l'Académie française, Société du nouveau littré le Robert, Paris.

The new Encyclopedia Britannica (1985), 15 edition, London.

١٣٩

المركز الإسلامي
للدراسات والبحوث

في البحث عن المركزية الدينية من بابل إلى البيت المقدس. ومن مكة المكرمة إلى المدينة المنورة